

الاسلوب العلمي والتاريخ

للدكتور اسد رستم

يعني الدكتور اسد رستم بتأليف كتاب في مصطلح التاريخ او علم « المثنودولوجية » . وبعد ان بعث لي حجم الاصول ، والعلوم الموصلة ، ونقد الاصول ، طرق موضوعين هامين هما تنظيم العمل ، وتفسير الشعر . نراينا ان نعرضهما نموذجاً لوضوح جديد في آداب اللغة العربية لم يسبق ان طرقت باحث آخر .

تنظيم العمل

بالمؤرخ المدقق ، بعد ولوج هذه الابواب الثلاثة ، اي بعد ان يكون قد جمع الاصول ، ونقدها ، وتمكن من العلوم الموصلة الى فهمها ، ان ينتج ما جمع من الاصول ، ويتبع خطة عملية رشيدة في استخلاص المعلومات منها . وقد ادرك المنفعة من مثل هذا العمل خاصة الناس وعامتهم ، وأجمروا عليه في حياتهم الشخصية . فقالوا بوجوب ترتيب الشباب في الخزائن والجوارير ، ووضع اواني المطبخ في محلات معينة لها ، وذلك لتسهيل الوصول اليها وعدم ضياع الوقت في التفتيش عنها .

وعلى الرغم من هذا لا تزال نرى بعض علمائنا يقضون السنين الطوال في البحث والتفتيش وجمع المعلومات ، وعندما تضطربهم الظروف للوجوع اليها ، يستعجل الامر عليهم ويمسر الوصول الي ما يريدون مما جمعوا ، الا بعد العناء الطويل . ونحن نعرف صديقاً لنا قضى عمره في درس تزيخ لبنان الحديث ، فوقف على جلالة ودقائقه ، واصبح اعرف الناس به ، ولكنه قليل الترتيب في تدوين ما يعلم . فانك لو طلبت اليه ان يظلمك على مرجع من المراجع التي اخذ عنها وذهبت معه الى بيته ، ودخلت مكتبته ، لو فعلت هذا لرأيتته يطلب دفقراً قديماً هنا ، وهامشاً هناك ، وقصاص اوراق دون في الواحدة منها معلومات

شقي بخطر سقيم مُجمِج . وقد تبقى في غرفته ساعتين او اكثر . ثم يقول لك
ساجت عن هذا في جر رائق وادافيك بالجوَاب . وقد يجد ما يطلب او لا يجد .
ولست ادري من ذا الذي قال ان مثل هذا مثل قوم قضا حياتهم كلها في
تشيد بناء يحملون حجارته على اكتافهم دون ان يفتقروا الى يعضونها ، حتى
اذا بلغوا المرحلة الاخيرة في حياتهم نظرت اليهم والى ما يفعلون ، فلا تسع
سرى ضجعة تصم الاذان ، ولا ترى سوى سحب من الغبار عقدت سرادقات
فوق رؤوسهم تُصي الابصار .

ومثل هذا التنسيق او الترتيب ، على تواضع ظاهره ، يمد في عرف المؤرخين
المدققين ، دعامة كبرى في بناء التاريخ . وبفضله وحده يتميز نفر من المؤرخين
على سواهم . فيوفرون على انفسهم اتعاباً حمة . ويصلون من اهدافهم الى ما لا يصل
اليه غيرهم .

واذا كان لا بد من تنظيم العمل فكيف يكون ذلك ؟ وماذا يفعل
المؤرخ فور انتهائه من نقد الاصول ؟ على المؤرخ ان يعترف بادىء بدءه أنه ليس
بامكانه ان يتسد على ذاكته في العمل ، وان يسلم بوجود القيد . وهو امر
لا يرتب فيه عاقل . وقد نطق بصحته فلاسفة علم النفس . وتناصرت عليه حججهم .
او لم يقل الفقيه اللغوي ابن عباس الكوفي :

لا تنسَ هاتيك العهود ، فاننا سميت انساناً لانك ناس

ويترتب على المؤرخ ان يعتمد كل البعد عن الدفاتر والاوراق المجلدة . لانه
اذا دون ما يستخلصه من الاصول في دفتر او دفاتر معينة ، تقيّد بترتيب خاص
قد تقضي الظروف بتغييره او تعديله قبل الانتهاء من مهمة التأريخ . وقد يضطر
المؤرخ ، بعد الابتداء بالعمل ، ان يفسح مجالاً اوسع لموضوع ما ، فلا يرى
سبيلاً لذلك الا بعد المناه . وقد لا يرى . اما اذا ابتعد عن كل ما يمت الى
المجلدين بصلة ، واتخذ للتدوين اوراقاً منشرة ، فقد انطلقت يده في الصل ،
واصبح حراً ، يزيد متى يشاء ، ويقدم ويؤخر ما يشاء .

وقد اختلف المؤرخون في كمية ما يدونون على اوراقهم المنشرة . فمنهم من
قال بتدوين كل ما له علاقة بالموضوع . اي اذا غني مؤرخ ما بتاريخ حرب من

الحروب ، وافرد لكل سبب من اسباب هذه الحرب ورقة او ورقات ، ولكل موقعة منها مثل ذلك ، وهلم جراً ، فطليه ان ينقل على اوراقه كل النص الذي يتعلق بمثل هذه المواضيع . وقال آخرون بوجود الاكتفاء بمجلاصة النص .

اما نحن ، فقد وجدنا بالاختبار الشخصي ، بعد ان بدأنا بتأريخ الحملة المصرية على الاقطار الشامية (١٨٣١-١٨٤١) ، ان لا هذه الطريقة ولا تلك تفي بالمرام . وذلك لاسباب نعرضها حالاً زيادة للايضاح . إن الاصول لهذه الحقبة الوجيزة من تاريخ الاقطار الشامية تروى على الالف كتاب بين مقالة ورسالة ورحلة وتاريخ رسمي . وهناك ما لا يقل عن الحسين الف وثيقة تتعلق بالموضوع نفسه . فلو عطينا بادخال جميع هذه النصوص ، على اوراق او بطاقات مشورة ، لاضطررنا ان نقضي حياتنا بالاستنساخ . وبعد ان عملنا بما ورد في اعلاه مدة من الزمن ، وزاولنا استنساخ النصوص على البطاقات كما تقدم ، اضطررنا الظروف ان نكتب شيئاً في بعض نقاط معينة . فوجدنا انه لا بد لنا من مراجعة المؤلفات نفسها للتحقق إماماً من صحة ما نقلنا او من علاقاته بنا قبله وما بعده . فلم نستفد من بطاقتنا ، والحالة هذه ، سوى انها ارشدتنا الى النصوص في وقت قصير للغاية ، وانها مكنتنا من ترتيب هذه النصوص ترتيباً تاريخياً في وقت وجيز ايضاً . فرأينا ، بعد هذا الاختبار ، ان نجمل من بطاقتنا المشورة فهرساً عاماً لجميع . واضيع الاصول وجميع اسما . الرجال والامكنة فيها .

على ان جميع المؤرخين اليوم يصرون على وجوب الاشارة الى زمن وقوع الحوادث المروية . ويحتمون على المؤرخ المنتب وجوب الاشارة في كل ورقة من ورقاته المشورة الى المرجع الذي يتبخلص منه محتويات هذه الورقات ، وذلك بذكر المؤلف والمؤلف والمجلد والصفحة .

□

وقد لا يختلف اثنان من علماء التأريخ في ترتيب الاوراق المشورة . فحيث نجمل من هذه الاوراق فهرساً عاماً للاصول ترتيباً مجددياً . وان آثرنا تدوين النصوص بكاملها عليها رتبناها اما بموجب تواريخها ، او بموجب الامكنة التي وجدت فيها ، او على اساس مواضيعها . وليذكر المؤرخ المستجد ان ترتيب النصوص

على اساس تواريخها ضروري في غالب الاحيان . وذلك لانه يوضح له تسلسل الرواية والحوادث المروية ، ولانه يتيه شر تقديم المسببات على اسبابها . وحيث ترد بعض الاصول بمجولة التاريخ ، عليه ان يسمى سميأً حثيثاً لتأريخها ، كي يتمكن من ترتيبها بوجوب تواريخها .

ولا يتبادر الى ذهن القارئ انه لا يجوز ترتيب النصوص على اساس الامكنة التي وجدت فيها ، او المواضيع التي تحتوي عليها . بل بالعكس ، فانه من المستحسن ان يتفطن المؤرخ في الأُس التي يتخذها للتصنيف والتنسيق ، سواء أكانت زمنية ام جغرافية ام غير ذلك . فاذا ما عالج المؤرخ درس موضوعه من مثل هذه النواحي المختلفة ، برزت له الحقيقة التي يتوخاها بوضوح وجلاء ، قد لا يصل اليها ، اذا اكتفى باتباع اساس واحد للتنسيق .

وقد يضطر المؤرخ احياناً الى اهمال التنسيق على اساس زمن النصوص لاستحالة معرفة تواريخها . فيكفي ، والحالة هذه ، بما تبقى لديه من سائر الاسس . ولنا في إختيار علماء اربعة ، ولا سيما العلامة الكبير تيردور مومسن ، في مجموعة النقوش اللاتينية (Corpus Inscriptionum Latinarum) ، مثال واضح يُؤيد ما تقدم . فان معظم هذه النقوش غير مؤرخ . وقد اختلف العلماء ، عشرات من السنين ، في امر تنسيقها وترتيبها . فقال البعض بتصنيفها على اساس محتوياتها وقسوها الى نقوش دينية ، ونقوش عسكرية ، ونقوش ادبية شعرية . واعترض آخرون على هذا التنسيق وقالوا بانحاذ المكان الذي وجدت فيه النقوش اساساً للترتيب . وذلك لان تنسيقها على اساس محتوياتها قد يضطر المؤرخ الى التكرار الملل . اذ انه معقول جداً ان يمتوي نقش ما على شعر ودين و حرب في آن واحد . وبعد اختبار طويل دام قرناً كاملاً ، او اكثر ، اجمت الآراء على افضلية الترتيب الجغرافي . وبعد ان نال العلامة مومسن ، مدة طويلة ، بالتنسيق على اساس المحتويات ، عاد فأيد الاساس الجغرافي . وظهرت المجموعة كاملة على هذا الاساس .

تفسير النص

وبانتها. المؤرخ من نقد الاصول ، على الوجه الذي تقدم شرحه في الباب الثالث من هذا الكتاب ، ينتهي النقد الخارجي . وينتقل المؤرخ من ظاهر النص ويجرد اللفظ الى باطن الكلام وفهم المعنى ، فيشرع في النقد الداخلي . والنقد الداخلي في مصطلح التأريخ على نوعين : نقد داخلي إيجابي ، ونقد داخلي سلبي . فالإيجابي يفتر النص ويظهر معناه . والسلبي يكشف الستار عن مآرب المؤلف واهوائه ودرجة تدقيقه في الرواية .

وتفسير النص ، وهو موضوع هذا الباب ، يكون على وجهين : اولهما تفسير ظاهر النص ، وثانيهما ادراك غرض المؤلف . فعلى المؤرخ المدقق المنقب ، حيث يحاول تفسير هذا النص ، ان يلمّ أولاً بلفظة الاصل الذي يدرس . وعليه ان يجيد فهم هذه اللغة كما عرفت واستعملت في العصر الذي عاش فيه راوي الرواية . فمعاني المفردات تتطور وتتغير احياناً مع تطور الظروف وتغير الاحوال . وكفانا دليلاً على ذلك بعض اعمال المجمع اللغوي في مصر ، وما وضعنا في هذا الكتاب من المعاني الجديدة المصرية في بعض المفردات والاصطلاحات التي استعملت في كتب الحديث والتفسير منذ مئات السنين . وعلى المؤرخ ايضاً ان يذكر ان المفردات والاصطلاحات اللغوية تختلف ايضاً باختلاف الاقليم . وقد تختلف باختلاف الكتاب نفسه .

وحيث يشمر المؤرخ المدقق بشيء من الشك في فهم بعض هذه الدقائق اللغوية في اصل من الاصول يجدر به ان يكمل قراءة النص أولاً ، ولله يقف على ايضاح ما التبس . فان اعياه ذلك فعليه بسائر كتب المؤلف . واذا لم يجد التفسير في النص نفسه ، ولا في مؤلفات المؤلف الاخرى ، رجع في ذلك الى اقوال الزملاء المعاصرين . هذا ، وإن « لا أدري » لمن العلم ا

وقد يكفي المؤرخ ، في قراءة الاوامر الادارية وبعض النصوص التاريخية القصصية ، بتفسير ظاهر النص لادراك غرض المؤلف . وذلك ان واضع النص ، في مثل هذه الظروف ، يتوخى استعمال الالفاظ التي توضح المعنى دون ان يتردد

في الامر - فاذا منح الموزع في فهم ظاهر النص توحد الى ادراك المعنى الحقيقي .
وقد يلبس الموزع غموضاً او نقصاً او تناقضاً في المعنى ، اذا هو استمك
بظاهر النص . فقد يكون في الكلام كناية ، او مجاز ، او استعارة ، او
تشبيه ، او تلميح ، او تعريض ، وما الى ذلك . قال ابن عبد ربه في عقده^(١) :
« وقد كتني الله تعالى في كتابه عن الجماع بالملامة وعن الحدث بالفائض . . .
وقال تعالى : واضم يدك الى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء . فكنتي عن
البرص . ودخل الربيع بن زياد على النعمان بن المنذر وبه وضح فقال : ما هذا
البياض بك فقال : سيف الله جلاه . ودخل حارثة بن بدر على زياد وفي وجهه اثر
فقال له زياد : ما هذا الاثر الذي في وجهك قال : ركبت فرسي الاشقر فجمح بي
فقال : اما انك لو ركبت الاشهب لما فعل ذلك . فكنتي حارثة بالاشقر عن النبيذ
وكتني زياد بالاشهب عن اللبن . وقال معاوية للاحنف بن قيس اخبرني عن قول الشاعر :

اذا ما مات ميتٌ من قميمٍ فسرَّك ان يعيش فجيُّ بزد
مجنَّبٍ او بسرٍ او بسنٍ او الشيء الملقَّب بالجداد
تراه يطوف في الآفاق حرصاً لياكل رأس لقمان بن عاد

ما هذا الشيء الملقَّب في الجداد ؟ قال الاحنف : السخينة يا امير المؤمنين . قال
معاوية : واحدة باخرى والبادي اظلم . والسخينة طعام كانت تعمله قريش من دقيق
وهو الخزيرة فكانت تسب به »

وهل ننسى ، ونحن نتكلم عن الكناية ، قول عمر بن ابي ربيعة :
ايا المنكح الثريا سهيلاً عمرك الله اكيف يلتقيان ؟
هي شامية ، اذا ما استقلت ؛ وسهيل ، اذا استقل ، يتاني .

ويجدد بالموزع العربي ، بعد مطالعة القرآن ودرس حكمه واحكامه ، ان
يدرس رسالة الفخر الرازي « نهاية الایماز في دراية الاعجاز » ، فيلمم ببعض ما
كان يقول في عقول السلف من هذا القبيل . فهناك فصول متتابعة في الكناية
وضروبها ، والتجنيس وانواعه ، والسجع ، والتضمين ، والترصيع ، والمجاز ،
والتشبيه ، والاعتذار ، والاستعارة ، والمطابقة ، والمقابلة ، والمزاوجة ،

(١) طبعة بولاق ، سنة ١٢٩٣ ، ص ٢٨٨-٢٩٠ : « باب الكناية والتبريض » .

والاعتراض ، والإلتفات ، والاقْتِباس ، والتلميح ، واللفّ والنشر ، والتعديد ،
والإيحاء ، وتجاهل المعارف ، والإغراق ، والجمع ، والتفريق ، والتقسيم . ومثل
هذا يكثر في النصوص الدينية ، والمراسلات الشخصية ، والقطع الأدبية . فعلى
المؤرخ المدقق ان يستمد مثل هذه المفاجآت اللغوية ، ويتنبأ لها . وحيث يعترض
المؤرخ مثل هذه العبات عليه ان يسمي لتذليلها بالوسائل نفسها التي يتذرع بها
لقهه الغامض من ظاهر النص : عليه بمطالعة النص كله أولاً ، ثم بمراجعة
مؤلفات المؤلف الأخرى ، فاقوال الأئمة المعاصرين . ويجدر به ان يتدوّن في مثل
هذه المواقف فلا يتوقع الكناية مثلاً في غير محلها ولا يغفل عنها في محل وقوعها .
بقي علينا قبل اختتام هذا الباب ان نعرّف بفضل علماء التفسير في هذا
المضمار . فان الاسس التي اتبعوها في اصول التفسير علمية صحيحة . قال شيخ
الاسلام تقي الدين بن تيمية في رسالته في اصول التفسير^١ ما نصّه : « فان قال
قائل فما احسن طرق التفسير فالجواب ان اصح الطرق في ذلك ان يفسر
القرآن بالقرآن . فما اجمل في مكان فانه قد فسر في موضع آخر وما اختصر في
مكان فقد بسط في مكان آخر . فان اعياك ذلك فمليك بالسنة فانها شارحة
للقرآن وموضحة له بل قد قال الامام ابو عبدالله محمد بن ادريس الشافعي : كل
ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو بما فيه من القرآن . وحينئذ
اذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك الى اقوال الصحابة فانهم
ادري بذلك لما شاهدوه من القرآن والاحوال التي اختصروا بها ولما لهم من
الفهم التام والعلم الصحيح لا سيما علماءهم وكبارهم . واذا لم نجد التفسير في
القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة فقد رجع كثير من الائمة في
ذلك الى اقوال التابعين كجهاد بن جبر فانه كان آية في التفسير . فاما تفسير
القرآن بمجرد الراي فحرام حدثنا مؤتمل حدثنا سفيان حدثنا عبد الاعلى عن سعيد
ابن جبيرة عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال في
القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار . »

(١) مقدمة في اصول التفسير . من كلام شيخ الاسلام تقي الدين بن تيمية ، معي بتحقيقها الشيخ
جميل افندي الشامي ، مطبعة التريقي بدمشق ١٩٣٦ ، ص ٢٤-٢٢